إشكالية طالب اللاهوت
بين الكلية والكنيسة والطالب

ما بين الكنيسة وكلية اللاهوت صراع يتعلق بتوقعات محددة مِن قِبَل كل طرف مِن الطرف الآخر، وساحة الصراع هي "الطالب" الذي ترُسِله الكنيسة إلى كلية اللاهوت، لِتعود الكلية وتُعيده للكنيسة، والمشكلة تبدأُ وتَزدَهِر ما بين هذا الذهاب والإياب، لِتَنْفجر في بعض المرات بعد الإياب بوقت غالباً لا يكون مديداً.
وأنا أعتقدُ أنَّ أَغْلَبَ الشمس والماء الضروريان لنموّ بِذرة المشكلة تأتي مِنَ الكنيسة والطالب، والقليل يأتي مِنَ الكلِّية، وأنا هنا أتحدَّث عن كلية لاهوت قد استَكْمَلتِ المواصفات التي تؤهِّلُها لتكون كلِّية، وليست قاعة درس كتابٍ مقدس، أو طُموح شخصٍ بأجواء اللاهوت!

وسأبدأُ مِن السؤال البديهي الذي سيُطرح مِن قِبَل معظم مَنْ وَصَلَ بالقراءة إلى هنا: لماذا ليس "غالباً" مِنَ الكلِّية؟

لن يكون العذر "غالباً" مِن الكلية، التي هي بالحقيقة كلية:

- لأنَّها ستكون مؤسَّسة مسيحية قد كرَّست نفسها لتعليمٍ صحيح موافق للكتاب المقدس، بحسب أرضية عقائدية وتعليمية وضعتها لنفسها.
- ولأنَّها ستضمُّ كادِراً تعليمياً وإدارياً متخصِّصاً بمجملِه، خاصة فيما يتعلق ببعض المواضيع والنقاط الهامة والدقيقة.
- ولأنَّ كادرها هذا هو بالأساس ودائماً عضو في كنيسة – كنائس – محلِّية حيث تقوم الكلية، هذا يعني أنَّ هذه الكلية تعيش "الكنيسة" يومياً.
- ولأنَّها ستكون مؤسسةٌ علميةٌ:
  - بمعنى أنَّها تدقِّق بالمعلومات التي تُسلِّمها للطلاب بطريقة عملية وصحيحة،
  - بمعنى أنَّها تبقى على إتصال – قدر المستطاع – بما هو حديث مِن الأبحاث العلمية الكتابية وسواها،
  - وبمعنى – وهذا هام جداً – تعتمد أساليب ومقاييس علمية واجبة في الدراسات الجامعية والأكاديمية.

هل تَخلُّ بعض الكليات ببعض هذه البنود؟ ربما، إذا كانت تدّعي أنها كلية حقيقية وهي ليست كذلك كما سبق وأشرت، أو أنَّ صعوبات أو أزمات تصيبها في هذا الدور أو ذاك الدور من حياتها كمؤسسة تعليمية، كما يحدث هذا مع كثير من المؤسسات التعليمية، وأحيانا كثيرة مع الكنائس نفسها!

لننتقل الآن إلى الأسباب التي تأتي من الكنيسة ومن الطالب، والتي تخلق الأزمة بين الكنيسة والكلية وبين الخريج والخدمة، وسننظر في أسباب الكنيسة وأسباب الطالب كل على حدى.

مشاكل تتعلَّق بالكنيسة:

لهذه المشاكل أو الأسباب الآتية من الكنيسة، حساسيتها التي تجعل كثيرين يبتعدون عن الانخراط في التفصيل فيها، ويجعل كثيراً مِن كليات الاهوت يُفضِّل عدم نقاشها أو التنبير عليها، لِئلا تنقلب الأمور عليهم رأساً على عقب. وأنا هنا سأتوقف عندها محاولاً التفصيل بها ولو قليلا، راجيا مِمَّنْ يجدني مجحفاً في مكان ما، أنْ يتروّى على نفسه قبل أنْ يُقرِّر صحة أو خطأ ما كتبتُ، وأنْ يَتروى عليّ أيضاً في موقفه منّي!

- الكلية كنيسة:

بعضُ الكنائس تَظنُّ أنَّ كلية اللاهوت ما هي إلا كنيسة تختلف عنهم بأنَّ الطلاب يتفرَّغون فيها لقراءة ودراسة الكتاب المقدس والصوم والصلاة! ويزيد البعضُ الآخر على هذا بأنَّه يتوقَّع أنْ يُمارس طالبهم بالكلية أسلوبَهم في الوعظ والترنيم وسواها مِن حياتهم الكنسيّة اليومية. فهل كلية اللاهوت كنيستي بثوب آخر؟ والجواب يجب أن يكون وبشكل قطعي: لا.
بلْ يجب أنْ يَسألَ أصحاب هذه الفكرة أنفسهم: إذا كُنّا نتوقَّع كلية اللاهوت بهذه الصورة، فلماذا نُرسل شبابنا إليها؟ فهم يقومون بالعمل المفترض نفسِهِ وبشكل مستمر وروتيني في الكنيسة! لماذا كلية اللاهوت إذا كان يجب أنْ تكون مكاناً مُشابهاً للكنيسة لدرجة المطابقة؟ أمّا الواقع الخاص بهذا الاعتقاد فيقول:
إنَّ كلية اللاهوت ليست كنيسة، لا شكلا ولا تطبيقا، مع أنَّها تتخصَّص حتى النهاية بكل ما له علاقة بالكتاب المقدس والكنيسة وتاريخها وأعمالها.
إنَّها ليست مكاناً ليتعلم فيه الطالب كيف ومتَّى ولماذا يُصلِّي، لأنَّه فعل هذا في كنيسته لسنوات عديدة وتمرَّس عليه، ولم يَعدْ يستطيع الانقطاع عنه!
إنَّها ليستْ مكاناً يتعلَّم فيه الطالب المواظبة على قراءة الكتاب المقدس، ككلمة الله لحياته، لأنّه فعل هذا في كنيسته لسنوات عديدة وتمرّس عليه، وبات جزءاً أساسياً مِن حياته اليومية.
إنَّها ليست مكاناً يتعلَّم فيه الطالب أنْ يُحبَّ كنيسته ويرغب في خدمتها، لأنّه بالأساس أتى إلى الكلية لأنه شعر بأنّ دعوةً لا تتوقف عن مناداته ليعطي حياته لخدمة الكنيسة وشعب الرب!
وعليه فإن تصريحاً يحمل استهجاناً أو استنكاراً، مثل: نحن لم نعلِّمْه هذا! أو ما هذه الكلية علموه أموراً مخالفة لما نعيشه في كنيستنا! يجب ألا يُطلق باتجاه كلية اللاهوت، والسبب ببساطة: ليست كلية اللاهوت مجسماً عن كنيستكم، ولا هي مصنع لصنع نسخ عن راعي كنيستكم!

- عدم تخصُّص الراعي وخدام الكنيسة:

أذكر أنَّني كنتُ في السنة الثانية مِن دراستي في كلية اللاهوت يوم سألني أحد رعاة الكنائس ممن لم يرتادوا كلية لاهوت مع أحد "المتقدمين" بين أعضاء الكنيسة: وما الفائدة مِن هذه السنين التي تضيّعها هناك؟ وكان السؤال في الواقع خلاصة حديث كان فيه كثير مِن الاستهزاء بالكلية وبما أُحصِّلُه وما سأُحصِّلُه، فأجبتهما ولربما كان جوابي لئيماً: إنَّ ما سأُحصِّلُه يُشبه الفرق بين مَن يُمارس مِهنة الطب بعد أن درس في كلية الطب وبين من يمارسها على طريقة الطب الشعبي!
وصفتُ ردّي بـ "اللئيم" لأنني رغبت آنذاك أنْ أنتقم منهما، وكان هذا خطأ. لكنه ليس لئيما بمعنى أنه خطأ، أبداً. فعدم التخصّص اللاهوتي للراعي وخدام الكنيسة الأساسيين بمعنى مَن يتولّون خدمة فيها تعامل مباشر مع الكتاب المقدس والناس، يجعل نظرتهم لكلية اللاهوت دونية حتما.
فهم لن يشعروا بأهمية التدريب الذي يتلقَّاه الطالب لأنَّهم لم يتدربوه،
ولن يشعروا بضرورة المعلومات التي يُحصِّلها الطالب مِن أساتذته، لأنهم لم يحصِّلوا على معلومات مثيلها فيما مضى،
ولن يتعرفوا على الطرق الأحدث والأصح في التعامل مع الشؤون الكنسية والكتابية وشؤون الناس، لأنهم لم يدرسوا قديمها ولا جديدها في كلية اللاهوت.
ولهذا ترى بعضاً أو كثيراً مِن – سأترك تقدير الكمية لغيري – الكنائس تعتمد أساليب شعبية في الخدمة والوعظ والتعليم، وأقول شعبية بمعنى بدائية وغير صحيحة، ثم يتحدَّاك صاحب هذه الطريقة بنجاح خدمته من خلال عدد الناس الذين ينتمون ويواظبون

على الكنيسة! والمؤسف أنَّه لم يلتفت ولا مرة إلى أنَّ العملية انتقائيّة تماماً، فعلى مرِّ السنين ذَهَبَ مَنْ ذَهَبَ أو طَفَشَ مَنْ طَفَش، أو انتحرَ مَنْ انتحر "روحياً"، وبقي مَن بقي، وغالباً كانت العِبرة غير نابعة مِنْ فَرادة طريقته، بمقدار ما كانت كامنة في العملية الانتقائية!

- شيوع الخدمة بين الرعية "الجميع يخدم":

في الواقع مشابَهة هذه النقطة بسابقتِها كبيرة، وهي بالأكثر متعلِّقة بِمَرَضين روحيين كنسيين ينتشران بين بعض الكنائس منذ مدة، أولهما أنَّ كلَّ المؤمنين في الكنيسة مدعوون للخدمة والقيادة، فما الحاجة إلى تأهيل شخص واحد في كلية اللاهوت؟ وإنْ حَصَلَ، فلن يكون أفضلَ أو أفهمَ أو أقدر من الباقين لأنَّ الجميع "مدعوون"!
وثانيهما كامِنٌ لدى تلك الكنائس التي "تَرَوْحَنَ" أعضاؤها زيادة عن غيرهم، وصار لديهم اعتقاد أن الروح القدس قادر ومستعد وراغب أنْ يُعلِّمَهم ويخدم فيهم، فما حاجتهم لكلية اللاهوت؟ وما الحاجة لأنْ يُرسلوا شخصاً لكلية اللاهوت، مادام الروح القدس سيُعلِّمه؟ وإنْ حَصَلَ وذَهَبَ، فلن يُحصّل أكثر مما يحصِّلون هم، أيْ باقي أعضاء الكنيسة، لأنَّ الذي يُعلِّمهم ويخدم بهم هو الروح القدس!
أَذكرُ شاباً، والواقع أكثر مِنْ واحد، اِنْسَحَب مِن صف اللاهوت بالامتداد الذي أعقده في كنيستي، وعندما سألتُه محاولاً مساعدته، قال لي باعتداد: كلّ هذا "حكي فاضي"، لأنَّ الروح القدس يُعلِّمني كل هذا. كانت دهشتي أكبر مِنْ أنْ أناقشه، لكنَّني استجمعت شتاتي سريعاً وسألته: يَعني الروح القدس يمكن أنْ يُساعدك على عبرة تأملية مِن عدد معيَّن من الكتاب المقدس، ولكن هل سيُعلِّمك أيضاً تصريف كلمة باللغة اليونانية؟ وهل سيُخبرك تاريخ سقوط أورشليم أو روما؟ فأجاب: هذه معلومات ليست لها أهمية، ومع هذا سيعلمني إياها.
الكلُّ خدَّام والكلُّ قادة للكنيسة، فأين باقي المؤمنين؟ حتى المسرحيات السياسية والاجتماعية تَسخَر مِن رغبة الجميع في المراكز الأولى، فكم بالأولى في الكنيسة؟ وستحدث المفارقة مع هذه الجماعة، يوم يُوجد فيها اثنان أو ثلاثة ممَّن صرفوا سنوات في الدراسات اللاهوتية، ليخدموا في كنيستهم مع أو تحت رعاية أشخاص بالكاد قرأوا بعض الكتب التي طُبِعَت في مِصر في ستينيات القرن الماضي! وسيبدأ لوم كلية اللاهوت على الأمور "الغريبة" التي يتحدث عنها هذا الخريج بينهم والتي أتى بها – حتماً – من كلية اللاهوت التي خرَّبته لأنها كلية غير روحانية!

مشاكل تتعلق بالطالب:

عَبَرْنا حتى الآن على مشاكل تتعلق بكلية اللاهوت، وأخرى تتعلق بالكنيسة التي أتى منها الطالب، ولكن ماذا عن الطالب؟ ما هي أبرز الأسباب الآتية مِنْ ومع الطالب لتجعلَه حلقة من الحلقات الثلاث، أي الكلية والكنيسة والطالب؟

- ضعف الطالب علمياً:

مع الأسف الشديد، حتى اليوم ما يزال يعتقد الناس أنَّ القسيس هو ذلك الشاب الذي لم يفلح بدراسته، ولم يجد عملا يقوته، فأرسله أهله ليدرس اللاهوت! ومع الأسف الشديد ما يزال مجتمعنا بشكل عام يعتبر أن خسارة كبيرة تصيب الطالب المتفوق وأهله في حال قرر دراسة اللاهوت وَوَهْب حياته لخدمة المسيح وكنيسته!
والناس يعتقدون أنَّ دراسة اللاهوت قضية بسيطة و"تسلية" لا بأس بها لِمَن ينخرطون بها، لهذا يكفي أنْ ينخرط بها بعض مِن أولئك البسطاء تعليميًّا أو الفاشلين في العِلْم. ولأنَّهم لا يَعرفون أنَّ اللاهوت أبو العلوم وتاجها، وهذا لا يتعلَّق بموقع مرموق يحتلُّه على لائحة التصنيف، بل يتعلَّق بما يتضمَّن مِن مواد واختصاصات تشمل معظم علوم الدنيا، فإنَّ ذلك الشاب الذي لم يستطع التحصيل

العلمي في المدرسة، وهذا يعني بالتبعية أنَّه لن يستطيع التحصيل العلمي في الجامعة، هو لن يستطيع حتماً وحتماً في كلية اللاهوت، التي هي أكثر مِنْ اختصاص واحد كما هي اختصاصات الكليات الأخرى كالحقوق والهندسة واللغات وسواها.

بعض هؤلاء الطلاب، سيعود كما ذَهَبَ، لأنَّه لن يستطيع أنْ يُحصِّل أكثر ممَّا يستطيع. وبعضهم سيعود والأفكار والمعلومات والنظريات في رأسه كأنَّها ضحيّة حادث سير رهيب على أحد الطرقات السريعة، فمات منها ما مات، وتضرر من تبقى على قيد الحياة. وهكذا في أبسط الأشكال السلبية، ستجده ومعلوماته يمثل حالة لا تنفع ولا تضر، وفي أشكالٍ أكثرَ مأساوية قد اختلَطَ لديه الحابل بالنابل، ممّا سيجعل الصرخة عالية على كليات اللاهوت وعلى من يعمل كليات اللاهوت ومن يدير الكليات.

وهنا أُهنِّئ كليات اللاهوت التي تبنَّت أساليب تُبعد الدراسة اللاهوتية عن هذه الإشكالية بأن تُطالب بحدود معينة من علامات النجاح في الثانوية العامة، أو بحملة الشهادات الجامعية للراغبين في الدراسة لديهم.

☜ ضعف المقدرات الشخصية عند الطالب:

تتطلب الخدمة الكنسية، خاصة الخدمات العلنية والشعبية، كالوعظ والرعاية والتعليم مقدرات شخصية خاصة تتعلَّق بالنُّطق ولباقة التعامل وشخصية جاذبة ومزيج متجانس من الخجل والإقدام.

قال لي أحدهم مُشيراً إلى شاب "يُقاتل" ليذهب إلى كلية لاهوت: يَعني لم نسمعْه مرةً يَعِظُ، وحتَّى عندما يُعطي القسيس فرصة صلاة للعموم تَراه صامتاً غير مُشارك، فكيف سيَدرس لاهوت ويصبح قسيس أو خادم في الكنيسة؟ وهو يشير إلى حالة انسحاب شديدة كانت لديه، ورهبة من الوقوف أمام جماعة.

في كلية اللاهوت، دَرَستُ مع طلاب أتوا للدراسة لأنَّ آباءهم قسوس ويجب أنْ يكونوا هم أيضاً قسوسا، وآخرين أولاد شيوخ أو متنفذين في الكنيسة، وآخرين لأنَّ الكلية عَرَضتْ على الكنيسة مِنحة دراسية كاملة لطالب أو أكثر وسواها مِن حالات مدهشة، ليست مدهشة في الكلية، بل مدهشة في حقل الخدمة وفي ميادين العمل في الكنيسة.

هل رأيتم وعاظاً يَتعلثَمُون، ويُرتَجُ عليهم كلَّما أرادوا الكلام؟

هل رأيتم وعاظاً ومعلِّمين، لا يستطيعون النَّظر في وجوه الموعوظين الذي أتوا ليسمعوا كلمة الرب؟

هل رأيتم وعاظاً ومعلِّمين، لديهم مشاكل في نُطق كثيرٍ مِنْ حروف اللّغة، حتى كأنَّك بحاجة إلى إعادة قراءة الدرس أو العظة التي أُلقِيَت عليك؟

هل رأيتَ رُعاة لا يعرفون كيف يديرون جلسة عمل إدارية؟

ليست هذه الأسئلة استخفافاً بالناس وبنقائصِهم، فلكلٍّ منَّا عيوبه ونقائصه، وأنا كذلك، ولكنَّكَ لا تستطيع أنْ تَحملَ عِبءَ خدمة تتطلَّب مقدرة معينة لا تملكها أنت.

☜ الضعف الكتابي عند الطالب:

ماذا عندما يكون الطالب الذي ذَهَبَ إلى كلية اللاهوت ضعيفاً في معلوماته الكتابية، بسيطاً في معارفه الروحية، فقيراً في فهمه للكنيسة والمؤمنين والناس؟

هل تظنون أنَّ كلية اللاهوت تُدخِل الطلاب في صفٍّ خاص لقراءة العهد القديم وصفٍّ خاص لقراءة العهد الجديد؟

هل تظنون أنَّ كلية اللاهوت تُلحِقُ الطلاب في صفٍ خاص لتحفيظ أعدادٍ الكتاب المقدس، أو تُقيم مسابقة لحِفْظ مقاطع من الكتاب؟

هل تظنون أنَّ كلية اللاهوت تُقيم دورة مكثَّفة لتحفيظ الطلاب أسماء أسفار الكتاب المقدس ومواقع كل سفر وعدد المزامير أو إصحاحات نبوة إشعياء وسواها؟

والجواب – واعذروني على هذا الجواب – هذه نُعلِّمُها في كنائسنا في مدارس الأحد، أي صفوف تعليم الكتاب المقدس للمرحلة الابتدائية. وهذا يعني أنَّ طالب اللاهوت الذي لا يعرف هذه، عليه ببساطة انتظار مرور المرحلة المتوسطة والثانوية عليه، حتى يتمكَّن مِنَ الالتحاق بكلية اللاهوت.

على ماذا تلوم الكلية التي أَرسلْتَ إليها طالباً مِن كنيستك؟ كنَّا نتوقّع أنْ تُرسِلَ لنا شخصاً حُجّة في الكتاب، يحتاج إلى زيادة معرفة وترتيب ما لديه! وبالتالي، كيف تَتوقّع أنْ يَعود إليك هذا النموذج مِنَ الطلاب، وبأي شكل سيرجع؟ إنه سيُشبه المثل الشعبي "تيتي تيتي، متل ما رحتي متل ما جيتي"!

ولأنَّني في المعمعة نفسها، لعلَّ قائل يقول لي: اذهبْ وانظر إلى صفوف الامتداد وهي تَضمُّ طلاباً لا يَصلحون لصف لاهوت.

وسأُجيب ببساطة: هذا صحيح. صحيح مِنْ حيث وجود هؤلاء الأشخاص، ولكنَّه غير صحيح مِنْ حيث المبدأ، نحن نَعملُ من أجل تدريب خدام، ولكنَّ طلابنا يأتون مِنَ الكنائس، ومُعظمهم يَلْتَحقون بتشجيع مِنْ رُعاتهم والمتقدِّمين لديهم، وهذا يُعيدنا إلى الحلقة عينها التي هي عنوان هذا الموضوع: بين الكلية والكنيسة والطالب!

حلب 25 شباط 2011